قصاصات ورق

قصة بقلم فاروق منيب

يونيو الكئيب . وقت الغارة المشئومة . كان الجنين في بطنها ، والابنة بجوارها . وقفوا داخل البيت .. الواحدة بعد الظهر . هدف العدو مطار ... التصقوا ببعضهم ، قرروا ان يموتوا معا ، او يعيشوا معا . ضحكت الابنة في اليوم الاول والثاني . اما في اليوم الثالث ، فبدأت تبكي . ادركت خطر الحرب . لم يذق الطعام . اذنه على الراديو . اسقطنا ثلاثين طائرة ، اربعين ، خمسين ، ثمانين ، الى ما شاء الله . وعلى الناحية الاخرى ، رفع الراية البيضاء على بيتك يعصمك من الخطر . اطع اوامر جيش الدفاع الاسرائيلي . لا يصدق . نوع من الحرب النفسية . وفي اليوم الثاني نزل الى الشارع يهرول . يبحث عن ساحة التدريب . يلعن كل شيء ـ يريد أن يحمي زوجته واولاده . لحظة واحدة تعطيه الثقة ، لحظة الزحف على الارض . يفرد ذراعيه احداهما على الاخرى . يقبل التراب ، يا أرضي الحبيبة .. لن أجبن بعد اليوم .. طلقة المدرسة الثانوية تدوي في اذنه . ليته سار في الشوط الى نهايته ، لكن النحت استحوذ عليه . شده الى ساحته .. الحياة هي الفن ، والفن هو الخلاص ، البداية والنهاية ، العذاب والفرح .. لكن تمثاله يخذله ، ينزل من عليائه الى ارض الواقع ، يتحدث كالبشر ... يبتهج ثم يأرق ، يأمل ثم ييأس ، يفزع في الليل ، يتهور في النهار ، وتلك هي المصيبة .. انفرط عقد الجبروت والقوة .

***

الآن ... يقعد وسط تماثيله يفكر ويتأمل . منذ لحظات هب من نومه مذعورا يجري :

ـ طفوا النور .. طفوا النور .. غارة ... غارة !

احتضنته زوجته مشفقة :

ـ لا يا حبيبي .. دا مش غارة .. دا رعد .!

أنباء غارة نجع حمادي ما زالت تعيش في وجدانه . ظل يثرثر وحيدا مكتئبا ، يمتلىء قلبه بالمرارة والسخط :

ـ كيف نزلوا ؟!.

ـ نزلوا أم لم ينزلوا .. ليست هذه هي القضية !.

ـ لا بد ان يتكون الجيش الشعبي ..

ـ لا بد .. لا بد ...

ـ ضعنا يا اولاد !.

ـ لا ... هم الذين ضاعوا .. الخونة والمرتشون ...

ـ حل سلمي .. وحل عسكري ...

ـ لا ... حل شعبي فقط . .

اليوم لم يسكن للسماء جفن . طول النهار وعيونها تدمع . وفي بعض الاحيان تبكي بحرارة ، ثم تشنج ، تريد ان تمزق شرايينها ... ثم تنتحر !. وهو صغير كان يفرح لسقوط المطر ، ورؤية البرق ، وسماع صوت الرعد ... أما الآن ، فان غضب الطبيعة يختلط بشبح الحرب . أين أيامك الصافية يا قوس قزح ؟!. لا فائدة من النوح . نحن نعيش في الحاضر الملتهب .

أمسك مطرقته ، راح يعالج كتلة الخشب الصغيرة بين أصابعه الحساسة : قطعة بيضاء بلون ... رمز السلام ... لم تعد الحمامة وحدها ترمز للسلام ... كل الحيوانات الاليفة رمز للسلام . احتضن نخلته الطيبة بين ذراعيه ، هي أيضا رمز للسلام منذ القدم ، رغم حشفها الخشن ... ولونها الداكن !. المهم ما في القلب .. ما في الخلايا والشرايين .. تظل النخلة تثمر على مهل ، في العام مرة ، لاجيال وأجيال ... منها الى باطن الارض مباشرة ... كل يتفاهم بلغته .. وفي السماء رزقكم وما توعدون . واذن فسوف ترتوي النخلة رغم حزنك يا يوسف !... لو استمعت الى همسها منذ سنين لكنت اليوم أسعد حالا . احذر الدعاية السخيفة ... لن أعطي بلحن اذا تغنيت في جمالي ... وصفت رونقي وحسني ... أعطي عندما تقدم لي الماء ، وتراعيني في الغذاء !. ولكنه معذور على كل حال .. فحين ينطلق كل شيء في اتجاه الريح الرابحة ، فمن الصعب ان يقف ضدها ! وما ضيعه في الدعاية السخيفة ، حاول أن يعوضه في خلق تماثيله !.

ألقى ببصره الى حديقته الخضراء : زهور الشتاء اللطيفة تغزل الوانها في زخرفة بديعة . ما قيمة الزهور ، وداخل البيت يشتعل بالنيران .. اللحظة للمدفع والصاروخ . كيف يشم رائحة زهرة ، والآخرون يشمون رائحة البارود وشياط الشظايا المحترقة ؟ تحسس جسد قطته ... لحظة سعادة غامرة ، حين يشعر بكتلة الخشب تتشكل بين يديه الى مخلوق جديد ، تتحول من ركود الموت والتفاهة ، الى نبض الحياة . لكن آه .. لو استمع الى صوت نخلته ... يجب ان يقترب منها ، يحتضن جذعها الحنون :

ـ نادم على ما فات يا عمتي الطيبة .

ـ هه !

ـ تسخرين ؟!.

ـ لقد مضى وقت الاعتذارات .

ـ أريد ان أجسد السلام في رمز .

ـ جسد كما تريد ... ولكن ابتعد عن العواطف المتضخمة .

***

عند قدمي تمثاله ، رقد ... ربما ينقذه من الغم ، ينتشله من الضياع ... نظر الى كيانه الذي قد من الصخر ... الندوب تغطي صفحة وجهه ، الاسى في عينيه ، مهزوم يبحث عن خلاص .. اطياف السخط ترفرف حوله ، لكنه ما يزال يدخل الرعب الى قلبه ، يرمقه بنظرة حادة من طرف عينيه ، حزم الضوء ترتعش في الحديقة ، الارض تهتز تحت قدميه ، هذه النظرة يعرفها جيدا ، لم يفلت منها مرة واحدة : سهم موجه اليه ، لا يستطيع رده بسهولة . حاول تفاديه ، لكن عبثا ... وفي النهاية يسمع الصرخة المتوغدة ... الى اين المفر؟! هذا التمثال من صنع يديه ، ومن تصميم عقله ، تصور جمجمته ... قلبه ... روحه ... وكان كلما ضرب ضربة ، شعر انه يبرز عصبا من الاعصاب ... فكيف يتمرد عليه ؟!. قام وخبط رأسه بفيظ ليؤدبه ، فانحنى له مكسور الجناح ... وعلى تجاعيد وجهه ظهرت ملامح الشيخوخة المبكرة ... لم يفرح به بعد .

سمع خطوات زوجته تقترب ... وجهها الرائق يخفف من بلواه . كلماتها الهامسة يرتاح اليها .

***

أيام حرب السويس ، كانوا يسمونها حمامة السلام .. طيفها الرقيق يسعده كانا يسيران وسط المدينة . وفي أمسية شتوية ما نزل المطر ... وتحت احدى المظلات وقفا يتفاديانه :

ـ ماذا تقرأين ؟.
ـ أحب تولستوي ودستوفسكي ...
ـ لكني أحب الفلاحين ...
ـ لم اذهب الى القرية ...
ـ يستحيل ان تكوني مصرية !.

ومن أول زيارة الى قريته ، حمل اليها حفنة تراب : هذه وثيقتي اليك ... أستطيع أن أقدم البط والاوز هدية ... ولكن التراب هو الاصل .

ابتسمت : ـ عاوزه أروح بلدكم .

ذهبا معا الى المجوهراتي . حفرا أسميهما على دبلتين بلا تاريخ . ماذا يفيد التاريخ ؟!. نبض القلب المحب هو التاريخ .

***

همست له في اشفاق : ـ تأكل ؟!.
ـ يعني .
ـ مالك ؟!.
ـ لا شيء .
ـ خلصت التمثال ؟!.
ـ التماثيل كالشعر ... لا تفيد !.
ـ ضروري تعقدها ؟!.
ـ لا ... أبدا .

***

على مهل جاءته الذكرى المدفونة في أعماقه . غزة يا غزة .. أين أنت يا حبيبتي .. ليتني لم اعرفك !. ثلاثة ايام ومضت الذكرى ... شبعنا مهرجانات شعر ... تصدع رأسي من قصائد المدح والهجاء ... ويا أحمد المرتجى في كل نائبة ... داخت اعصابي من مخلوقات النمل العجيبة !. وكنت حبلى بالخطر ، رغم البسمة على شفتيك ، والضياء على جبهتك ... قدمت لنا أفخر اضباق الطعام : اللحم ، الدجاج ، الديوك الرومية ، والسمك واروع اصناف الحلوى التي تشتهرين بها . وعلى شاطئك ... انحنينا ... نجمع الاصداف للذكرى .. آه ... لو صدفة واحدة الآن .... اصدافي القديمة ملكتها ابنتي ... وابني الجديد لم ير اصدافك بعد ... لم يعرفك بعد !. ماذا أقول له عندما يكبر ؟!.

وفي خان يونس القى بيننا صاحب الذراع الواحدة أبياتا من الشعر ... تعجبت من المعنى رغم سخطي على قرقعة المنابر ... لم نعد دمى مزوقة يتفرج علينا الناس ... واشار ببقية ذراعه المقطوعة الى جدار قريب : هنا كانت معركة للمقاومة مجيدة ... قطعت فيها ذراعي ، ومات اخي وآخرون . خجلنا لحظات ، ثم سرعان ما تذكرنا الغداء الدسم الذي ينتظرنا ... غرقنا في التجديف . الواقع يلطم خيط الرحلة بجهامته ولهيبه .

وبعد المأدبة الفاخرة خرج الاعيان وأصحاب النياشين والعقال الزاهي ، ... انقض المشردون الصغار على البقايا ، كادت تحدث معركة تشوه الصورة ... لولا لطف من الله ... أشرنا عليهم ان يتركوا الجوعى يأكلون ... والا ؟!.

وفي المساء غضب مني الرفاق ... كان السؤال يبدو سخيفا ... لا يليق بجلسة انس وتعارف :

ـ يا كتاب فلسطين ، ماذا تسجلون في بطاقاتكم الشخصية ... والجنسية بالذات ؟!.

كانت امنيتي الا يكتبوا اردنيين ... او لبنانيين .. او ... لا بد ان يسجلوا ... فلسطينيين !.

غزة يا غزة .. ما الذي ذكرني !.

وفي مواجهة البوابة الكئيبة وقفنا نلتقط الصور التذكارية ، نشير الى الارض المحتلة ... لحظتها لم أشعر انني مصري ... فلاح.. من أبو كبير ... او انشاص .. ادركت انني عربي ... فلسطيني .. محروم من أرضي ..

غزة يا غزة ، اشياؤك ما زالت عندي ، اصدافك تدفئني .. ما عرفتك !.

وسط الظلمة ، كانت دقائق لا تنسى ... محل ((لاياس)) يموج بالحركة ، بالميني جيب والميكرو جيب . الهواء المكيف الدافيء يلسع السيقان والافخاذ الزجاجية العارية . معذرة ... هي بينهم ، شعرها يسترسل على كتفيها في ضفيرتين طويلتين ناعمتين ، جبينها يتألق بالضياء مثلك يا غزة ... تحمل في اعماقها السر ... حطت كالطيف ، رفرفت على ارض القاهرة كالطير ... كانت تتعجب :

ـ هذه حياتكم ؟!.

وهو يرتشف عصير البرتقال :

ـ أحوال !.
ـ آه ... لو رأيتم الاغوار ؟!.
ـ تحبين حياتها ؟.
ـ مرفأي الذي ارتاح لديه .
ـ وأسعد لحظاتك ؟.
ـ عندما ينادوني ... بيا ... ختي ...
ـ لك أخوات ؟
ـ هم اخوتي ... أبي وأمي ... وكل وجودي .

وعلى الباب بعد ان ودعها لم يرفع عينيه عنها ، عن طيفها وهي تتيه وسط الزحام ... كقرص الشمس قبل أن يغيب ... ربما لن يراها بعد اللحظة ... وربما تشرق كل صباح .

***

وهو صغير ، شعر الوطن من خلال الاشياء الصغيرة : الاستحمام في الترعة ، أكل البلح الاحمر ، صيد السمك ، الاستغماية حول قصر الجن ، الذهاب مع أبيه الى سوق السبت ... كان أبوه يبكي في أخريات ايامه ، عندما تواجهه الصعاب ... ابنه الآخر مريض في مستشفى الامراض العقلية منذ خمسة عشر عاما .. فقد الذاكرة ، يتوق لرؤيته ، ولكنه لا يقدر . يبكي ... الكبار كالصغار ، دموعهم سهلة المنال ... مات أبوه صافي النفس .. نقي السريرة ...

ليته جسده في تمثال !.

***

ذات صباح ، عندما كان طالبا بالمدرسة الثانوية قرأ عنوانا في الجريدة : بيفن يصرح ، بريطانيا العظمى يستحيل ان تتخلى عن مصر ، تعتبرها قطعة منها ... غلى الدم في عروقه ، كان يخرج في المظاهرات ، اما اليوم ، فعليه ان يقودها ، فناء المدرسة هاديء خامل ... الطلبة لم يتجمعوا بعد ، ملوا المظاهرات والاعتصام ، والمطالبة بالسلاح ، لم يجد وقتا للتردد ... اعتلى حجر احد السلالم ، تشنج صوته بغضب ، لن نصبح قطعة من بريطانيا ابدا ، تحلقت حزم الطلبة ايها الزملاء ، انجرف السيل وراءه ... عاش كفاح الشعب المصري ... بيفن بيفن ... يسقط بيفن .. وطلع آخر مستقل .. بدأ حديثه بطلقة رصاص في الهواء ... فتأججت النفوس .. السلاح .. السلاح .. نريد السلاح .. ثم عاد الى قريته .. يحب اشجار البرتقال واليوسفي والمانجو ، يحتضن أشجار الكازورين والكافور ، يقبل رمالها ... يهمس لنفسه : هذه قطعة مني ، يستحيل ان افرط فيها .. من يومها لم يعتل منبرا.. اتجه الى عالمه الخاص ، تماثيله ، ربما يجد فيها السلوى والعزاء .. يحقق زعامته الذاتية .

***

وبعد عشرين عاما يسقط تمثال القوة ، لا يستطيع صلب كيانه الا امامه اذا زاره زائر ، ينحني مهزوما ، خجلا ، يبكي على الذكريات ... يتحسر على الماضي ، لم يبق منه سوى عينين حادتين تجيلان النظر ، بحثا عن الخلاص ! يزأر في الفضاء ، فلا يجيبه سوى الصدى ... ان ضاعت الاكف والاذرع والعيون والآذان ... تضرب وتسمع وترى .. الى النهاية ... هي الضحية والفداء ... الضاربة والمضروبة .. القاتلة والمقتولة .. اخرج من قوقعتك يا ...

***

بالامس كان وزوجته يستعيدان الايام ، يرتبان امر المعابد يبتسمان، يقرآن اعلانا في احدى الجرائد ... فقد كلب أصيل من نوع

ـ التتمة على الصفحة ١٤٢ ـ

قصاصات ورق

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٢٢ ـ

« الراكشون » ، لونه رمادي داكن ، طويل الجسم ، قصير الساقين ، اسمه « كلايد » ، من يعثر عليه ، له مكافأة مجزية ... يتصل بتليفون .... او بفيللا ايناس بالمعادي !.

كانت لطيفة ، على جسدها روب جديد ، وعنـــد مفرق شعرها واحدة بيضاء : كبرت مني ، قلت المشاحنات ، ازدادت الصداقة ... الولد الصغير يتدحرج بين ساقيهما ، يضحك كالكبار ، يقلـــد صوت الكلب ... هو ... هو ... يفرد له أصابعه ليلعب معـــه « .. آدي البيضة .. وآدي اللي شواها ... وآدي ... حت حتيت ... لقول لتيت » . يضحك قبل ان يكملها له . يمشي على كفيه وركبتيه كالجمل، يركب فوق ظهره فرحا ... ليلة طيبة يحب ان يتوجهـــا باللحظـــة الحلـوة ...

ـ يهمس لهـا : ـ منـى .

ـ نعـم .

رأسها على صدره . يقبل شعرتها البيضاء . يسري الدفء فـــي جسديهما .

ـ انت نمت ؟.

ـ لا ... أبـدا .

يتململ الصغير يريد الثدي . تقوم لترضعه ثم تعود .

غريبة ! ما هذا الحياد السخيف ! لفحت البرودة الفراش . مـا فائدة الرجال ؟!. هزموا في الحرب ، كل شيء لا طعم له ، ولا لون ولا رائحة ... الشعر عبث ... النحت عبث ... الطعام عبث .. الجنس عبث !. ارض سيناء ملوثة ... الغرب يئـــن ويتوجع ... المرتفعات محصنة ... وأرض فلسطين تنتظر ، تتحـدى ، تشرئب ، بالرصاص ، بالخنادق ، باللهب ! تعاني المخاض الاليم !.

***

اقترب من تمثاله : ـ زعلان ؟!.

ـ لا ... أبـدا .

ـ ضروري تتعدل .

ـ ضروري طبعا .

ـ خذلتني يا شيخ !

ـ صنعتني بيديك .

ـ كان المطلق يسيطر علي !

ـ وما ذنبي انا ؟!.

ـ والآمال تعذبني .

ـ الذنب ذنبك .

ـ آسف لمـا حدث .

ـ لست مسؤولا عن شيء .

ـ بـل مسؤول ...

لمس الحجر الاملس . كادت الدموع تطفر مـن عينيه . احتضنه . قبل رأس تمثاله ، معتذرا عما بدر منه في الماضي ، همس اليه : لـــم اقصد اهانتك ... تجاذبتني الاهواء ، طوحت بـــــي ، كادت تقتلـع جذوري . العتاب لا يجدي ، عيني وعينك على نفس الاتجاه . ليس المهم ان ينظر احدنا في عين الآخر كي يحبه ... بل ان ننظر معا فـــي نفس الاتجاه ... قالها سانت اكسيوبري ... وأيضا قـال ... ان ميـــزة الانسان هي انه يحمل في أعماقه شيئا أثمن من ذاته ... وجيفارا .. على الانسان ان يكون مستعدا دائما لمكافحة الظلم في أي مكان فـــي العالم ... هو الوحيد الذي تخلى عن السلطة في سبيل المبادىء ... لا فائدة من التعديد .. ما فات مات ... ولكن : ـ أظنك توافقني ؟.

ـ يعنـي !.

ـ كـن صريحا .

ـ لا بـاس !.

ـ يا تمثالي العزيز .

ـ أمرك يا مولاي .

ـ اخلص النية .

ـ سوف أحاول .

ـ مد الي ذراعك .

ـ الصعوبات في وجهي .

ـ يمكن ان نتغلب عليها .

ـ واذا فشلت ؟!.

ـ نحن معك .. ملايين الاكف والاذرع .. العيون والآذان ...

ـ ثم تكبرون على كتفي ... أليس كذلك ؟!.

ـ نعم ... ولكن هل نسيت ؟!.

ـ لـم أنس شيئا .

ـ تعبنا وشقاؤنا .

ـ قلقكم ووساوسكم وظنونكم .

ـ قلة نومنا وأشجاننا ...

ـ فرحكم وشرودكم ...

ـ جوعنا وعطشنا .

هتف بذكاء :

ـ كل ذلك يهون في سبيل لحظة الخلق ... فلا تمنوا علي كثيرا. وتراجع مذعورا . لا ذنب عليه اذن . الذنب ذنبه . ليتحمل وحده عذابه وقلقه ، ضيقه وحزنه ، ومن جديد :

ـ مـا رأيك ؟!.

ـ رأيي رأيك .

ـ خـاب ظني .

ـ ابدأ من جديد .

ـ ألا يغضبك ذلك ؟!.

ـ مصلحتك فوق كل شيء .

ـ ليس بهذه السهولة .

ـ كـن بسيطا .

ـ أخاف المجهول .

ـ لا تتفلسف كثيرا .

ـ هزمت مـرة .

ـ ليس بعد هزيمتي من هزيمة !.

ـ آسف لمـا حدث .

ـ ألم تستوعب كلمات عمتك النخلة ؟!.

ـ . . . . .

ـ لا وقت للعواطف المتضخمة .

ـ رمز جامد أشك فيه بعض الاحيان .

ـ بل هو الاصل ... المنبع والمصب .

ـ خرساء لا تنطق !.

ـ شبعنا كلاما ... تصمت ثم تثمر ... أما أنتم !.

ـ تصفعني كلماتك .

ـ تصفع نفسك بنفسك .

ـ لا تقس علي هكذا ..

ـ لقد قسوت علي كثيرا .

***

وجه الحسناء يطل عليه ، يهمس له ، نحن نريـــد لكل البشر أن يتمتعوا ، يعيشوا الحياة ، مع الفن ، فلا تضيع لحظاتك الحلـوة ... نفرح عندما يضحك الاطفال ويلعبون ... نسعد عندما يذهبون الـــى الشاطىء ... غايتنا أن ترى العيون أجمل ما فـــي الكون ، أن تجوب الاقدام كل شبر في الارض ، بحثا عن شاطىء للامان ... ألا تضيـــع لحظة سعادة واحدة على مخلوق ... دمنا فداء لسعادتكم ... حسبنا أن تبتعدوا عن الدعاية السخيفة ، ولا تبتذلوا نفوسكم .. و ..و ...

ينتهز الفرصة : ـ وعينا التمثال ؟!.

يخفق الصدى :

ـ لا تهتم ... عش شجاعا ... أو مت شهيدا .

القاهـرة

فاروق منيب